

772 - ماذا يحدث فى المصريين؟: هنا والآن!!!

تعتة الوفد

"ماذا حدث؟" ماذا حدث للمصريين؟

"ماذا حدث للمصريين فى نصف قرن؟ (أو أكثر أو أقل)،

ما الحكاية؟

العنوان شديد الجاذبية، ليس فقط للقارئ العادى وإنما يبدو أنه كذلك للناشرين المحترفين. صناعة النشر تجارة مهمة، لها وعليها كل مناقب ومثالب ما يسمى: "سياسة السوق المفتوح"، لكن يبدو أنه مفتوح لغيرى من مبدق لغته وآلياته.

أقر وأعترف أنه لا يعيب أى دار نشر (خاصة أو عامة) أن يكون هدفها المكسب، كما أنه لا مفر من أن أقر أيضا - مع بعض الخسد وربما الخقد - أنه يحق لأى كاتب صدرت الطبعة العشرين أو الخمسين من كتابه خلال شهور، أن يفرح بنجاحه لجذب كل هؤلاء القراء إلى عمله، وبالتالي يصبح أهلا لأن تقبل عليه دور النشر لمزيد من النشر، وأنا لست من هؤلاء، لذلك غمرتني الدهشة حين اتصل بي المسئول الفاضل عن النشر فى إحدى أهم دور النشر، وطلب منى أن اكتب كتابا لهذه الدار الكريمة، وحين استفسرت عن موضوع الكتاب أجابنى بهذا العنوان المشهور: "ماذا حدث للمصريين؟"، وحين أشرت إلى مدى ترامى أبعاد الموضوع ومسئوليته، طمأننى بقبول كل ما أكتب، فاستوضحته عن الموعد، فقال: "خذ راحتك"، ويا ليت ما قالها، أى والله، لاني حين أخذ راحتي لا أنتهى أبدأ، سنوات مضت، وأنا ما زلت آخذا راحتي، قراءة ومراجعة وتحضيرا، بلا إنجاز خالص.

فى نفس التوقيت تقريبا، شرفنى أ.د. أحمد نوار، وأ.د. أحمد مجاهد، بشرف أن أتولى موقعا متميزا (رئيسا) فى مؤتمر أدباء مصر فى سوهاج (نوفمبر 2006) وكان الموضوع المحورى للمؤتمر بنفس العنوان، "ماذا حدث للمصريين؟"، فكانت بداية كلمتي ردا على هذا السؤال أنه: إيش عرفنى ماذا حدث للمصريين، واستقبل الحاضرون الكلمة بدعشة مبدئية، ثم شرحت ما أعنى، وكيف أن الإجابة شديدة الصعوبة بهذا التعميم.

ظللت مدينا لدعوة النشر الكريمة من دار النشر هذه، خاصة بعد أن بلغنى أنهم قد وافقوا على نشر عمل آخر لى أعتز به جدا، فزاد شعورى بالجلل والعرفان، وصممت أن أسدد دينى وأجز لهم ما طلبوه سالفا.

حين هممت بالبدء فى المهمة، توقفت طويلا أمام المنهج، وحين راجعت حاسوبى وجدت أنى لم أكتب - حتى فى الطب النفسى - إلا عن "ماذا حدث للمصريين"، لكن النظرة الثانية بينت لى أنى إنما أكتب عن "ما يحدث"، لا عن "ما حدث"، قلت: "هذا هو ما يمكن أن يميز إضافتى.

عدت أجمع ما وصلنى عن هذا الموضوع فوجدت أن الباحث الناقد المبدع أ.د. جلال أمين هو أول من ابتدع هذا العنوان الجذاب، فحفلته المسئولية عما آلت إليه الحال تحت هذا العنوان، قلت: هى سنة استنها، له أجرها، وعليه وزرها إلى يوم الدين!! بدأت بمراجعة المزيد مما كتبه فى ذلك تحت عناوين أخرى: مثل "وصف مصر فى نهاية القرن العشرين؟"، وأيضاً "عصر الجماهير الغفيرة" وحتى "ماذا علمتنى الحياة"، وكلها بلا استثناء فيها من الصدق والشجاعة والإبداع ما يجعلك تشعر أنك عرفت جيدا ماذا حدث للدكتور جلال أمين بصفاته الشخصية والإنسانية والمصرية، وإلى درجة ما، حالة كونه فى مواجهة لبعض مشاكل وشخوص بعض المصريين، لكننى بقدر ما تعرفت عليه بكل هذه الميزات، رفضت أن أقبل أن يكون ممثلاً شخصياً للمصريين كلهم، ولا حتى أغليهم، معظم هذه الكتابات هى سير ذاتية أمينة، وآراء مهمة لصاحبها، يصدق عليها قوله فى كتابه الأخير فى الجزء المعنون: "ماذا حدث للمصريين؟" أنه اكتشف "..ان أفضل مقال يكتبه هو الذى يجمع بين الخاص والعام، بين تجربة شخصية ومشكلة عامة ذات مغزى تتعلق بأحوال المصريين..". هذا هو فى كل ذلك.

رحت بعد ذلك أجمع ماتيسر بعيدا عنه، بما فى ذلك كتابات الشباب الجريئة والعارية والمعرية، مثل قاموس: "روش طحن" لياسر حمادة، ثم كتاب عمر طاهر (شكلها باظت)، بالإضافة إلى كتابات بعضها أكاديمية ممنهج، مثلاً: د. عزة عزت (التحولات فى الشخصية المصرية) - د. عبد الباسط عبد المعطى (التدين والإبداع فى مصر)، فضلا عن ما ظهر فى الفترة التى أخذت فيها راحتى مثل كتاب أ.د. أحمد عكاشة: "تشریح الشخصية المصرية" (لنفس دار النشر)، بصراحة، توقفت طويلا طويلا، وقلت مستحيل أن يكون ذلك كذلك، ولا مجال لنقد مناهج هذه الكتابات فى هذه العجالة.

انتهيت باختصار إلى أن غاية ما يمكن أن يصل إليه مجتهد فى هذا المجال هو أن يكتب "رأيه" فى: "بعض وصف بعض مصر"، فقلت فليكن هذا هو عنوان كتابى أنا، فجأة استوقفتنى تعبير "وصف مصر"، كيف أكتب تحت هذا العنوان وأنا لم أقرأ بعناية كافية كتاب جمال حمدان، وربما الأخطر أنى لم أقرأ باستيعاب مفيد ما كتبه المستعمرون الفرنسيون!! تحت نفس العنوان؟ (تقريباً)؟

ثم إنه قد أتاحت لي فرصة مناقشة إعلامية لبعض إنجازات "مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار"، كما تفضل رئيسه الإبن العالم الأمين أ.د. ماجد عثمان فزودني مؤخراً ببعض جهد المركز من دراسات وإحصاءات بعضها مقارنة مع العالم، وبها، معلومات وأرقام كبيرة هامة عن قيم المصريين وأشياء أخرى، فخفت أكثر، وتراجعت حتى عن عنوان التبويض "بعض وصف.. بعض مصر" إلى عنوان المقال الخالي "ماذا يحدث للمصريين؟" هنا والآن؟".

رحت أكتب مقدمة عن المنهج وعناوين الفصول من واقع حاسوبي وموقعي، فوجئت أنني أحتاج عشرة آلاف صفحة، قلت: لا، يبدو أنني سأعود لتوصية المسئول عن النشر و"أخذ راحتي من جديد".

أو ربما، لو كان في العمر بقية، قد أعود إليكم،

ولكن: واحدة واحدة.

ربما.